قتيبة الباهلي

البطل الفاتح

للمستشرق الانجليزي هـ. أ. ر. جب
الأستاذ بجامعة إكسفورد

إن انتصار الجيوش الإسلامية فى آسيا الوسطى أيام عهد الوليد الأول إنما يرجع قبل كل شيء إلى التعاون التام بين عبقرية الحجاج الحكيمة ومهارة قتيبة الحربية . ولقد بولغ — من بعض النواحى — فى كفاية قتيبة بن مسلم الباهلى فى قيادته الجحافل ، وإن كانت المصادر العربية لا تنكر الحقيقة الواضحة فى أن مقدرته لا ترتكز كل الارتكاز على العبقرية . ويتجلى لنا مراراً كثيرة إلى أي مدى كان دؤوب الوالى على الاهتمام بتقدم جيوشه ، وما كان يأخذ به نفسه من وضع خطة القتال ، ولو أن فضل إظهارها وانتهائها بالنصر المؤزر يرجع فى الحقيقة إلى قتيبة . ويظهر أن الحجاج كان كبير الثقة فى قائده إلى غير حد ، وكما أنه لم يكن ليتوانى عن تعنيفه ولومه وتحذيره إذا جدّ ما استدعى ذلك ، كذلك كان لا يحجم عن إظهار تقديره لنجاح قتيبة . وسرعان ما أدرك العرب فى جميع البقاع أن مقدرة الحجاج تشد من أزر قائدهم وإن استترت ، فكان ذلك الإدراك مبعث كثير من هذه الهيبة التى حالت دون حدوث أى خُلف فى حياته

أما العامل الثانى الذى ساعد فى الواقع على تلك الفتوح فقد كان ما قام به قتيبة خلال متابعته الفتح من توحيد جهات خراسان ، وتأليفه الفرس والعرب ، وقيس واليمن . ولم يكن من الهين عليه أن يستبقى حماسة جنده — التى لا يعرف التخاذل إليها سبيلاً — إزاء معارك طويلة الأجل حامية الوطيس ، وهيهات أن يقصر تفسير هذا الحماس على أنه الرغبة فى الغنيمة الوفيرة فحسب . وليس من البعيد أن يكون مرجع نجاح قتيبة فى الغالب إلى مقدرته الإدارية أكثر من رجوعه إلى حكمة قيادته . ويظهر أنه أدرك أن استتباب سلامة ودعائم الحكومة العربية فى ولاية خراسان ينبغى أن يقوم — طوال حكمها — على تعاون الشعب الفارسى الذى يؤلف الغالبية العظمى فى الإقليم : الأمر الذى لم يقم به حتى الآن أمير عربي فى الشرق

ولقد أظهرت حدة النضال الحزبى عظيم الخطورة فى الاعتماد على عون العرب فحسب ، وعلى الأخص فى وجه حركة كتلك التى أضرم لهيبها يزيد . ومن ثم فقد اكتسب قتيبة — بعمله الإيجابى هذا — ثقة الفرس وكافأها من جانبه بالثقة أيضاً . حتى ليكاد يخيل الينا أنه باستعماله — طول حكمه — لموظفين من الفرس وتقديمه الولاة الايرانيين إنما كان يعدهم « العشيرة » التى كان يحتاج اليها بين العرب . وعلى الرغم من أن ذلك قد جلب عليه سخط العرب وكان عاملا قوياً فى إسقاطه ، إلا أنه فى ذلك كان أول دافع لإثارة الشعور باسترجاع العاطفة القومية فى نفوس فرس خراسان .

كذلك كان مركز آسيا الوسطى مشجعاً للعودة إلى محاولة ضم بلاد ما وراء النهر الغنية إلى المستعمرات العربية ، وإن كنا فى شك غير قليل إزاء الأخبار المتعلقة بمدى اهتمام العرب بهذه الناحية . ففى سنة ٦٨٢ م ، بينما دبّ الضعف الداخلى فى الصين من جراء مكائد الامبراطورة تو Wu ، وبينما كانت يداها مصفدتين بحروبها مع التبت قام الأتراك الشماليون أو الشرقيون باسترداد استقلالهم ، ولم تفلح الامبراطورية الجديدة مطلقاً فى بسط نفوذها ثانية على الأقاليم الغربية فى الخانات السابقين ، غير أنها مدّت حكمها — بواسطة الحملات المتواصلة — على القبائل العشر التى تنزل إيلى Ili وتشو Chu التى يقال إنها « قد تلاشت فى أغلبها » وفى سنة ٧٠١ م غزا الأتراك الشرقيون سُجْديانا Sogdiana ، بيد أنه ليس ثمت داع للاهتمام جدياً بالقول بأن قوات المهلب قد تأثرت بهذه الغزوة ، ولو أنه كثيراً ما رُدِّد هذا القول ، ولا بد أن التدمير والخسارة اللذين كانت تتسم بهما هذه الغزوات بلا استثناء قد ساعدا على إضعاف موارد أمراء الرعية الذين كان لهم نصيب واف فى اختيار ابن الخان ليقود القبائل العشر . وعلى أية حال فإن الحرب الدائمة التى كان يثير ضرامها الأتراك الشرقيون ضد التركش Türgesh من ٦٩٩ إلى ٧١١ م قد حالت فى الواقع بينهم وبين إرسال نجدات إجابة لاستغاثات كانت تصلهم من سجديانا بطلب العون [1] منهم . كذلك لم يكن

(١) Chavannes : Documents sur les Tou-Kiue occidenteaux (طبعة سنت بطرسبرج سنة ١٩٠٣) PP. 42, 282:
Marquart : Die Chronologie der Alttürkischen Imschrifter (ليبزج ١٨٩٨) P. 15. راجع كذلك الطبري ج ٢ ص ١٠٧٨ و ١٠٨٠

من المستحيل على التركش التدخل فى سجديانا خلال هذا العهد نفسه [1]

ويقصد مؤرخو العرب — بلا استثناء — بكلمة « الترك » جميع السكان المحليين الذين لا يستبعد أنه كانت فيهم إبان ذلك الوقت عناصر تركية . والواضح أن الاشارات العرضية إلى الخاقان إنما هى نعوت نفر (اللهم إلا إذا أمكن إرجاعها إلى الرؤساء المحليين وذلك أمر بعيد الاحتمال) ؛ وإن قصة ٩٨ هـ التى اتخذتها فكرة التدخل دعامة لها إنما هى من نسج خيال باهلى بحت ، وخلاصة القول أن تجربة العرب فى السنوات الأخيرة ترينا أنه كان من المحال على قتيبة أن ينعم بهذا المجد الباذخ من النصر لو أن كتائب كبيرة من الترك وقفت وراء سجديانا تشد من أزرها فى مقاومتها . وتقع فتوح قتيبة بطبيعة الحال فى أربعة أوقات هى :

١ — سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) حيث استرد إقليم طخارستان الأدنى

٢ — فتح بخارى من ٨٧ — ٩٠ هـ (٧٠٦ — ٧٠٩ م)

٣ — تركيز نفوذ العرب فى وادى جيمون وامتداده إلى صغد بين سنتى ٩١ و ٩٣ هـ (٧١٠ — ٧١٢ م)

٤ — الحملات على ولايات تركستان ، من ٩٤ — ٩٦ هـ (٧١٣ — ٧١٥ م)

* * *

أما عن إقليم طخارستان الأدنى فقد كان الجهد قبل قتيبة منصباً على كبت كل ثورة تنشب فى هذا الاقليم . وفى ربيع السنة السابعة والثمانين للهجرة (٧٠٥ م) التأم الجيش وسار من « مرورود » وطالقان إلى بلخ ، ولقد خضعت المدينة — كما ورد فى إحدى روايات الطبرى — دون نضال ما . وتشير رواية أخرى إلى شبوب ثورة بين بعض السكان ، وقد يمكن عد هذه الرواية وإن لم تكن فى وضوح الباهلية — كسابقتها لورودها على لسان أخى قتيبة ولأنه يُرى من ورائها لاقامة دعوى باهلية على البرامكة . ولقد يكون هذا الرأى هو الأدنى إلى الصحة ما دمنا نسمع من أن بلخ قد أضحت خربة بعد أربع سنوات من ذلك [2]

وتلا إخضاعَ بلخ إخضاعُ تيش Tieh ملك شغانيان الذى يحتمل أنه تعاون مع المفضل فى الهجوم على ترمذ قبل ذلك بعام واحد . ويظهر أن الدافع له على عمله هذا إنما هو الصراع مع ملك شوهان فى الأودية العليا لنهرى سرخان وأليغاليا ، وكان يأمل أن يستخدم ضده الجيوش العربية جزاء مساعدته إياها . وحقيقة الواقع أن المفضل قد دبّر حملة ضد شومان قبل استغنائه ، وكانت قد خرجت تحت إمرة قتيبة الذى كان أكثر الجميع استعداداً للنهوض بها ما دامت تؤكد سلامة الوصول إلى الطريق الجنوبى للبوابة الذهبية . وبعد أن فرغ قتيبة من إخضاع ملك غِسلَشْتان Ghislashtan الذى كان من نبعة تركية كما يذكر يوان شوانج Yuan Chwang . وآب قتيبة بمفرده إلى مرو تاركا جيشه يسير تحت إمرة أخيه صالح الذى قام بعدة غزوات صغيرة أثناء الطريق .

وإنه لمن الواضح الجلىّ — على الرغم من زعم البلاذرى — أن هذه الغزوات لا بد أنها قد وقعت فى الأقاليم المجاورة لنهر جيحون ، ومع ذلك فان فى رواية الطبرى نقصاً [3]

وهكذا فإن قتيبة لما عزل (رينزك) فى بادغيس قلب الثورة أمضى شهور الشتاء فى مفاوضته عن طريق « سليم المشير » وهو فارسى نافذ الكلمة قد برهنت حنكته — أكثر من مرة — فى تصريف أصعب المفاوضات على حاجة قتيبة القصوى إليه . وقد أغرى « نيزك » على التسليم ، وسيق إلى مرو وقرّت الأغماد على ألا يدخل قتيبة بادغيس بشخصه . ومع ذلك فإن الحاكم — من باب الاحتياط — قد أمر أن يصحبه (نيزك) فى جميع حملاته ، ومن ثم فإنه — على الأقل فى هذه اللحظة — كان قد أمن من خطر اندلاع ثورة فى خراسان بطريقة شريفة لكلا الجانبين ؛ وقام ابن بيروز قافلاً إلى الصين ينتظر سنوح فرصة تكون أكثر مواتاة له [4] .

ا . ك . جب

---

(١) كما يرى ذلك الأستاذ هوتسما ، راجع Gotting. Gelehrt Anz. 1899. PP. 386 - 387.

(١) راجع الطبرى ج ١ ص ١٢٠٦

(٢) من قراءات برتولد فى Turkyestan v' Epokhu Mongolskavo Nashystviy P. 91. N. 5 and P. 76. (سنت بطرسبرج ١٨٩٨)

(٣) الطبرى ص ١١٨٤ و ١١٩٥ والهمدانى فى كتاب البلدان